

غرام « سعد زغلول »

للدكتور زكي مبارك



دَرَجْتُ في الأعوام الأخيرة على كتابة مقالة سنوية في (الرسالة) بمناسبة ذكرى « سعد » ، رعايةً لفضل هذا الرجل في بث الحياة الأدبية عند اختلافه مع زملائه الذين شاطروه أعباء الثورة المصرية ، لا رعايةً لقامه الوطني « وهو مقام محفوف بالإجلال عند جمهور المصريين والشرقيين » ؛ وإنما أحترس هذا الاحتراس لأن حقدى على « سعد » كان يفوق الوصف ، ومقالاتي في الهجوم عليه كانت أقوى ما كتبت في صدر شباني ، فقد كانت مبادئ الحزب الوطني غزت قلبي غزواً عنيفاً

أكتب هذا والحزن بمصر قلبي ، فقد انقضى ذلك العهد ، وخذت النار التي كانت تتأجج في صدري ، ولم أعد أقبل الانضمام إلى أي حزب من الأحزاب السياسية

كانت لنا مبادئ تقتتل في سبيلها اقتتال المجاهدين الصادقين ، وكنا نرحب من أجلها بالسجن والاعتقال طائعين فرحين ، مبادئ سليمة تفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، في غير بني ولا عدوان ، فعلى عهدنا الكريم ألف تحية وألف سلام ! ولو لم يكن هذا الحديث متصلاً بذكرى « سعد » الذي عانى ما عانى من بلايا النقي والاعتقال لطوته بلا تردد ، مراعاةً لظروف هذه الأيام ، فلتكن هذه السطور فتناً من الإحياء لذكراء بين أبناء هذا الجيل

حديث اليوم عن « غرام سعد زغلول » ، وهو حديث لم يُفَضَّ به إلا لأفراد قلائل ، فما ذلك الحديث ؟ أذكر أولاً أنني لن أجتري إنمّا ، ولن أسنّ سنة سيئة ، حين أتحدث عن غرام رجل عظيم شرّق صيته وغرّب ، فن الحال أن تخلو قلوب المظاء من صبوات وأهواء

يضاف إلى ذلك أنني سأحدث يوماً عن « غرام مصطفى كامل » ، الغرام الذي جملة من كبار الخطباء بلغة الفرنسيين ،

والذي فرض عليه أن يهتف هتاف الشوق إلى هواء ، وهو يمانى سكرات الموت ...

وأذكر ثانياً أن الدار التي سيجري اسمها في الحديث عن « غرام سعد » لن تتألم ولن تتأفف ، لأن سعداً أحبها وأحب أهلها حب الشرفاء ، ثم ارتدّ عنها بحسرة دامية لم يخفّ كربها إلا بعد سنين تزيد على الخمسين

فكيف كان « سعد » حين استمر في صدره ذلك الحب ؟ كان طالباً في الأزهر الشريف ، وكان طلبة الأزهر في المهود السوالف على جانب كبير من التوقر والاستحياء

ولو شئت لقلت : إنه كان من الصعب على أي فتى مصرى أن يتخيل كيف تكون المرأة وهي عارية ؛ ولو شئت لقلت أيضاً : إن التصون كان مما يتباهى به الفتيان ، في ذلك الزمان ، قبل أن تصاب الدنيا بأوضار التمدن الجديد

وكان « سعد » أزهرياً عفاً القلب ، ولم يكن يعرف من نعيم الحواس غير اللحظات التي يقضيها مع زميله إبراهيم الهلباوى متربّعين على الرصيف بجانب المحكمة المختلطة لمشاهدة الرانحات والغاديات في عصرية كل خميس

فهل تكون تلك العصريات علّمت سعداً معاني النزك الملقوف ؟

هل تكون أوحى إليه أن قلب الفتى قد يتوهج من حين إلى حين ؟

حين قصّ علينا الهلباوى بك - رحمه الله - تلك الحكاية لم يشأ أن يطنّب في الشرح والتعليق ، فقد كان في المجلس رجال يؤذيه التبسط في مثل ذلك الحديث ولم أكن أنا أعرف أنى سأتكلم عن غرام سعد بعد حين أو أحيان

المؤكد أن سعداً قضى شبابه في تصون وعفاف ، ولولا ذلك لكان من المسير أن يظل في نشاطه المعروف إلى أن يجاوز السبعين ومن هنا نعرف كيف اصطلى بنار الوجد في صباه ، فالشاب المصون يمانى من الغرام لذعات أحر من لدغ النار ، لحرماته من التصعيد الذي يجود به الحب الأثيم

فأين كان حب سعد ، حبه السليم من آفات العبت والمجون ؟ أطلّ يوماً من غرفته فرأى في دار الجوهري فتاةً كحيلة

إلى بنات الجيران ؟ هيهات ثم هيهات ، فقد حلف على المصحف ليصبرنَّ إلى آخر حياته وهو في طهارة القات الذئب

ثم يضطرم قلب سعد أعنف الاضطرام ، وتزداد بلاؤه بهواه المكتوم ، من يوم إلى يوم ، والفتاة لا تعرف أن بجوارها فتى يدعو الله في أعقاب الصلوات أن يجعلها نصيبه من دنياه ، أو يجعلها على فرض الحرمان نصيبه من الحور العين

ويعض فيقلب كتب النحو والفقه والتوحيد ليحفظ ما فيها من الأسماء الغزلية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعض فينسخ ديوان ابن الفارض ، ليتخذ منه سميراً يؤنس وحشته حين تخفت الأصوات في دار الجيران

إن سعداً فلاح وابن فلاح ، والفلاحون يخمدون نار الصبوة بالزواج ، فما الذي يمنع من أن يسلك مسلك الفلاحين الشرقاء ، فيطلب القرب من أهل تلك اللبحة الجوراء ؟

وهنا تنور مشكلة من أقبح المشكلات ، مشكلة اجتماعية يعانيها الحي الأزهرى في جميع الأزمان ، وهى إصرار سكانه من كبار التجار على أن الأزهريين غرباء

لا جدال في أن الأزهريين هم شرايين الحياة في ذلك الحي ، وبفضلهم تحيا متاجر وتقوم أسواق ، ولكن هذا الفضل مجحود ، لعله يحار في فهمها اللبيب . وقد كانت كلمة « مجاور » كلمة مدح ، لأنها منقولة عن مجاورة الحرم النبوى الطاهر ، ثم صارت كلمة هجاء ، بسبب التحامل على الأزهريين ، فاعجب لكلمة ينقلها سوء المعاملة من مدلول إلى مدلول ، بلا موجب معقول !

ومع أن الشيخ سعد زغلول كان يعرف أن حي الأزهر حي غادر ختال ، فقد قهره الهوى على أن يطلب يد ابنة الجوهري ، ليسلم من وقد هواه ، وليعرف كيف يقبل على دروس الأزهر بعناية والنفات . وهل من المحال أن يبقى ذلك الحي مرة في العمر لشرقيه من فتيان الريف ؟

تسجع الشيخ سعد فطلب يد ابنة الجوهري ، فردة الجوهري برفق ، وهو يجهل ما ينتظر عمامة سعد من سيطرة أدبية وسياسية على أبناء هذه البلاد

ورجع سعد حزين القلب ، كاسف البال ، وقد خاب أمله في هواه إلى آخر الزمان ، ثم نظر فرأى أن الفرار من الحي

المعين مشرفة الجبين ، ثم غض بصره بسرعة حين تذكر أن ما زاد على النظرة الأولى حرام لا حلال

وما احتياجه إلى نظرة ثانية وقد رُسمت صورة الفتاة على أنفاس قلبه رسماً جعلها أقرب إليه من متن الألفية ، وأوضح من شرح ابن عقيل ؟

هل يُطل من النافذة فيراها مرة ثانية ليتأكد من التماثل بين الصورة والأصل ؟

لا بأس ، ولكن الفتاة لم تكن تظهر في صحن البيت إلا عند الأصيل ، وهو الوقت الذى يعود فيه فتحي افندى من المدرسة ، وهو شقيقه الذى صار فيما بعد فتحي باشا زغلول ، وكان الشيخ سعد يراعى فتحي افندى ، ويعتمد الظهور أمامه بصورة الناسك المتعبد ، ليصرف عنه سوء التلفت إلى النساء ، فقد كان يعرف أن التلاميذ « الأفندية » معرضون من هذه الناحية لأخطار ترزُل رواسى الجبال

النظر إلى المرأة حرام ، فاحكم الشرع في سماع بُنّام الملاح ؟ وإنما عرض له هذا الخطر الطريف ، لأن مناعة الفتاة لأتربها كانت تداعب أذنيه من وقت إلى وقت ، وكان شديد العجب من أن تكون لفتيات الحواضر أنغام لم يسمع مثلها من بنات الريف ، أنغام تصنع بلُبه ماتصنع الراح بألباب الشارين ما حُكم الشرع في هذه القضية ؟ أيسفتى أشياخه بالأزهر الشريف ؟ أيرجع إلى مطولات الفقه بالكتبخانة الخديوية (١) ؟ لا هذا ولا ذاك ، وإنما اكتفى بوضع القطن في أذنيه عند سماع ذلك البُنام إلى أن يقضى الله في أمره ما هو قاض

كان يمتنى أن تتاح النظرة الأولى مرة ثانية ، النظرة التى يُرمى بها الفتى عن غير عمد ، وهى حلال على أرجح الأقوال ، ولكن آباءنا قبل ستين سنة لم يكونوا يسمحون لفتاة بالخروج من البيت حين تصبح وهى في نضرة العنق الفينان ، فمن المستحيل أن يظفر الشيخ سعد بنظرة بريئة من تلك الفتاة عند الخروج لدروس الصباح ، أو عند الرجوع لتناول الغداء

وهل كان الفتى الأزهرى يصلى ويصوم يستبشع التطلع

(١) اسمها اليوم : دار الكتب المصرية

في الوصول إلى « مؤتمر السلام » قد بصرف عنه قلوب المصريين وفي تلك الحفلة هُتِفَ عند دخول عدلى باشا بعبارة « تحيا وزارة الثقة » ، وهُتِفَ لسعد باشا بعبارة « تحيا » الشيخ سعد أما الحفلة الثانية فكانت ... أين كانت ؟

كانت في دار الجوهري ، الدار التي ردت سعداً خائباً قبل أعوام يزيد على الحسين

وجرى المئات لسعد : « يحيا الشيخ سعد »

والتفت سعد باشا ذات اليمين وذات الشمال ، فرأى أنه في أمان من ثرثرة السفهاء ، وأن الشيخ القديم لن يغب الباشا - الجديد ، وأن من حق الأزهرين أن يفتخروا به مشكورين ثم التفت الرجل مرة ثانية ذات اليمين وذات الشمال ، وسمح لعينيه بدستين محرقين ، هما التحية لهواه الذي ذهب إلى غير معاد هذا سعد باشا خليفة الشيخ سعد ، ولكن أين بنت الجوهري ؟ وأين مكانها في هذا الوجود ؟ أغلب الظن أنها ماتت وإلا فكيف صبرت عن خلع العذار لتقبل الحبيب الذي انتصر على مكائد الزمان ؟

وأقام سعد في « بيت الأمة » يتلقى تهنئة الوفود بعودته - سالماً من باريس ، وكان يمدُّ يده فيزع اللثام عن كل امرأة تمتص بالحجاب ، وكانت حجته أنه يؤيد رأى صديقه الحميم قاسم أمين

ولعله كان يرجو أن يطلع عليه القمر الجوهري ، لو كان للقمر الآفل طلوع

لقد حدثتني النفس بزيارة دار الجوهري قبل أن أسطر هذا الحديث ، ولكني خفت أن أضاف إلى المجانين كان لي فيك هووى ، يا دار الهوى ، فأين غرام سعد وأين غرامى ؟

إن اعتدل الميزان فسكتب على بابك العالى سطرأ يقول : « هنا تهافت أحلام وقلوب »

وأين دار الجوهري ؟ لا تسألوها عن مكانها ولا تسألوني ، فقد ناب عني وعنها أبو تمام حين قال :

لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ خف الهوى وتقضت الأوطارُ وأنت ، يا سعد باشا ، ما رأيك في هذا الحديث ؟ ألا ترى أنه من أشرف ما يتصل بتاريخك الجميل

الأزهرى واجب مفروض ، لينجو من غمزات الذين شهدوا ردة الأليم عن مناسك هواه . وأبناء الريف تؤذيهم ثرثرة السفهاء لا بُدَّ من ترك الحى الأزهرى ، ولكن أين يذهب ؟ وماذا يصنع ؟

إن أباه كان يرجو أن يصير من علماء الأزهر الشريف ، ومن أئمة الدين الحنيف ، فكيف يخلف ظن أبيه بلا تهيب ولا استحياء ؟

ثم بدا له أن الكرامة الذاتية من مقاصد الكرامة الدينية ، نفع العامة والنجبة والتفطان ، ولبس الحلة الأفرنجية واحتراف المحاماة ، فأصبح وهو الأثوكتو سعد أفندى زغلول ، بشارع عابدين ، وأمسى مكتبه سامراً يلتقي فيه كرام الرجال ولكن لوحة صغيرة كانت تثير جواه حين يدخل ذلك المكتب ، لوحة رُقش في صدرها الأبيض هذا البيت : وإذا دُعيتُ إلى تناسى عهدكم ألفت أحشائي بذاك شحاحا ولم يكن بدُّ للقلب المجروح من دواء ، وهل يُداوى القلب الفطور بغير العمل الموصول ؟

سراً عامٌ وعامٌ وأعوام ، وسعدٌ يجاهد في سبيل المجد ليعرف من ردوه جاهلين أنهم أضاعوا « جوهرة » لن يرى « الجوهري » مثلها ولو أضاع العمر في البحث والتنقيب

ثم استجاب الله لدعوات والدِّين الصالحين ، فاقترن سعدٌ بفتاة كريمة المم والخال هي بنت مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء في ذلك العهد ، وهي اليوم صفية زغلول أم المصريين ، أسبغ الله عليها نعمة الصحة والعافية ، إنه قريبٌ محبب وجاءت أيام في إثر أيام ، وتقلَّ سعدٌ من حال إلى أحوال ، إلى أن نفاه الإنجليز في سنة ١٩١٩ بسبب قضية الاستقلال

ثم سمح الإنجليز بأن يسافر من مالطة إلى باريس ليقنع « مؤتمر السلام » بمدلة القضية المصرية إن استطاع وعجز سعدٌ وأصحابه عن الوصول إلى قصر فرساي ، فرجع إلى مصر وهو آسف غضبان

فإذا رأى بعد الرجوع ؟ أقيمت له حفلات في الحى الأزهرى ، أولاهما في دار البكرى ، وقد فرح بها فرحاً عظيماً ، فقد كان يظن أن خذلانه